طرائف من ادب العرب

(٤)

جاؤا على بكرة ابيهم

« مثل يُضرَب للجماعة اذا جاؤا كلهم ولم يتخلف منهم احد . والبكرة الفتية من الابل . واصل هذا المثل انهُ كان لرجل من العرب عشرة بنين فخرجوا الى الصيد فوقعوا في ارض العدو فتناولهم ورؤسهم في مخلاة وعلقوا المخلاة في رقبة بكرة كانت لابي المقتولين . فجاءت البكرة بعد هدوة من الليل فخرج ابوهم وظن ان الرؤوس بيض النعام وقال قد اصطادوا نعاماً وارسلوا البيض فلما انكشف الامر قالت الناس جاء بنو فلان على بكرة ابيهم »

قال في تاج العروس : جاؤا على بكرة ابيهم اذا جاؤا جميعاً على آخرهم . وقال الاصمعي جاؤا على طريقة واحدة . وقال ابو عمرو جاؤا باجمعهم . وفي الحديث جاءت هوازن على بكرة ابيها هذه كلمة العرب يريدون بها الكثرة وتوفير العدد وانهم جاؤا جميعاً لم يتخلف منهم احد . وقال ابو عبيدة معناهُ جاؤا بعضهم في اثر بعض وليس هناك بكرة حقيقة . قال ابن جني وعندي ان قولهم جاؤا على بكرة ابيهم بمعنى جاؤا باجمعهم وهو قولك بكرت في كذا اي تقدمت فيهِ ومعناهُ جاؤا على اوليتهم اي لم يبقَ منهم احد

وقال الزمخشري في اساس البلاغة « وجاؤا على بكرة ابيهم اي جميعاً والاصل حديث الدهيم »

اما الدهيم فناقة عمرو بن الزبّان الذهلي قتل هو واخوتهُ وحملت رؤوسهم عليها فقيل اشأم من الدهيم . قال لسان العرب « وقيل للداهية دُهيم ان ناقة كان يقال لها الدهيم وغزا قوم من العرب قوماً فقتل منهم سبعة اخوة فحملوا على الدهيم فصارت مثلاً في كل داهية . قال شمر وسمعت ابن الاعرابي يروي عن المفضل ان هؤلاء بنو الزبّان ابن ثُمالة خرجوا في طلب ابل لهم فلقيهم كشيف بن زُهير فضرب اعناقهم ثم حمل رؤوسهم في جُوالق وعلقهُ في عنق ناقة يقال لها الدهيم وهي ناقة عمرو بن الزبّان ثم خلاّها في الابل فراحت على الزبان فقال لما رأى الجوالق اظنّ بنيّ صاروا بيض نعام ثم اهوى بيده فادخلها في الجوالق فاذا راس فلما رآهُ قال آخر البرّ على القنوص فذهبت مثلاً وقيل اثقل من حمل الدهيم واشأم من الدهيم »

وتجد في القواميس تحت باب الخاء ما نحواهُ : خوتعة رجل من غُفيلة دلّ كشيف بن عمرو الغفيلي واصحابهُ على بني الزبّان الذهلي لثار كان عند عمرو بن الزبان . فأتوهم وقد جلسوا على الغداء . فقال عمرو لا تشب الحرب بيننا وبينك . قال كلاّ بل اقتلك واقتل اخوتك . قال فان كنت فاعلاً فأطلق هؤلاء الذين لم يتلبسوا بالحروب فان وراءهم طالباً اطلبَ مني بمني اباهم . فقتلهم وجعل رؤوسهم في مخلاة وعلقها في عنق ناقة لم يقال لها السميم . فجاءت الناقة والزبّان ابوهم جالس امام بيته فبركت . فقامت الجارية وجسّت المخلاة فقالت قد اصاب بنوك بعض النعام وادخلت يدها فاخرجت رأس عمرو ثم رؤوس اخوته . فغسل الرؤوس ووضعها على ترس وقال آخر البرّ على القرص[1] اي هذا آخر عهدي بهم . وشبت الحرب بينهُ وبين بني غفيلة حتى ابادهم فضرب بخوتعة المثل في الشؤم . يقال هو أشأم من خوتعة . ويقال ايضاً للرجل الصحيح الكلام هو اصحّ من خوتعة لانهُ اخبر كشيف بن عمرو الخبر الصحيح

شيء من التوراة

« من لم يؤمن بقضائي ولم يصبر على بلائي ولم يشكر نعمائي فليتخذ ربّاً سوائي . من اصبح حزيناً على الدنيا فكأنما اصبح ساخطاً عليّ . من تواضع لغنيّ لاجل غناهُ ذهب ثلثا دينهِ . يا ابن آدم ما من يوم جديد الاّ ويأتي اليك من عندي رزقك وما من ليلة جديدة الاّ وتأتي اليّ الملائكة من عندك بعمل قبيح . خيري اليك نازل وشرك اليّ صاعد . يا بني آدم اطيعوني بقدر حاجتكم اليّ واعصوني بقدر صبركم على النار واعملوا للدنيا بقدر لبثكم فيها وتزودوا للآخرة بقدر مكثكم فيها . يا بني آدم زارعوني وعاملوني واسلفوني ارحكم عندي ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . يا ابن آدم اخرج حب الدنيا من قلبك فانهُ لا يجتمع حب الدنيا وحبي في قلب واحد ابداً . يا ابن آدم اعمل بما امرتك وأكفِ عما نهيتك اجعلك حيّاً لا تموت ابداً . يا ابن آدم اذا وجدت قساوة في قلبك وسقماً في جسمك ونقيصة في مالك وحريمة[2] في رزقك فاعلم انك قد تكلمت فيما لا يعنيك . يا ابن آدم اكثر من الزاد فالطريق بعيد وخفف الحمل فالصراط دقيق وأخلص العمل فان الناقد بصير واخّر نومك الى القبور وتحرك الى الميزان ولتأتك الى الجنة وكن لي اكن لك وتقرب اليّ بالاستعانة بالدنيا تبعد عن النار . يا ابن آدم ليس من انكسر

(١) البرّ السلاح كله . والقرص الناقة الشابة او البكرة (٢) حريمة الرجل التي حرمها او منعها من شيء

مركبهُ وبقي على لوح في وسط البحر باعظم مصيبة منك لانك من ذنوبك على يقين ومن عملك على خطر »

واقد قضيت يومَ بليلته بين دفتي التوراة والانجيل فلم اعثر على هذه الآيات على عمومِ معانيها ولا على ما يشبهها الاَّ قولهُ « اخرج حبَّ الدنيا من قلبك فانهُ لا يجتمع حب الدنيا وحبي في قلب واحد ابداً » فان لهُ ما يشبههُ في قول الانجيل « لا يقدر احد ان يخدم سيدين . لانهُ اما ان يبغض الواحد ويحب الآخر او يلازم الواحد ويحتقر الآخر . لا تقدرون ان تخدموا الله والمال » . والاَّ قولهُ « ما لا عين رأت الخ » فقد جاء في احدى رسائل بولس الرسول قولهُ « ما لم ترَ عين ولم تسمع اذن ولم يخطر على بال انسان الخ » . وقد عثرت في المثل السائر لابن الاثير الكاتب . وفي البيان والتبيين للجاحظ . وغرر الخصائص الواضحة للوطواط . والعقد الفريد لابن عبد ربهِ . والكامل لابن الاثير المؤرخ . ومروج الذهب للمسعودي . والكشكول للعاملي . والمستطرف للابشيهي على آيات قيل انها اخذت من التوراة وهي ليست فيها لا مبنًى ولا معنًى — لا في التوراة التي بين ايدي اليهود ولا في التوراة التي بين أيدي المسيحيين على شدة الخصام بين الامتين

الارض والقمر

« كما ان جرم القمر يقبل ضوء الشمس لكثافتهِ وينعكس عنهُ لصقالتهِ كذلك الارض تقبل ضوءها لكثافتها وتنعكس عنها لصقالتها لاحاطة الماء باكثرها وسيرورتها معها ككرة واحدة [1] . فاذن لو فرض شخص على القمر تكون الارض بالقياس اليهِ كالقمر بالنسبة الينا . وبحركة القمر حول الارض يخيل اليهِ انها متحركة حولهُ ويشاهد الاشكال الهلالية والبدرية وغيرها مدة شهر . لكن اذا كان لنا بدر كان لهُ محاق واذا كان لنا خسوف كان لهُ كسوف لوقوع اشعة بصرهِ داخل مخروط ظل الارض ومنعهِ اياها من وقوعها على المستنير من الارض والماء والشمس . واذا كان لنا كسوف كان لهُ خسوف لوقوع اشعة بصرهِ داخل مخروط ظل القمر ومنعهِ اياها ان تقع على الارض . وكما يرى على وجه القمر الحر يرى على وجه الارض مثلهُ »

هذا البيان الفلكي صحيح اجمالاً لا تفصيلاً . فان القمر لا ينعكس ضوء الشمس لصقالتهِ

(١) في هذه العبارة خطأ واضطراب فاشتان ما تعدد الضمائر وصعوبة ارجاعها الى الاسماء التي تناسب مثلها . وصوابها « كذلك الارض تقبل ضوء الشمس لكثافتها هي وينعكس عنها هذا الضوء لصقالتها من احاطة الماء باكثرها وسيرورتها معهُ ككرة واحدة »

ولا الارض تعكسهُ لذلك اذ لا حاجة للجسم ان يكون صقيل السطح ليعكس النور عنهُ . ومن رأيهِ ان الارض صقيلة لاحاطة الماء باكثرها ولا بدَّ ان يكون هذا حال القمر ايضاً في زعمهِ . ولكن المشهور ان القمر ارض سوات لا ماء فيهِ ولا هواء . اما المحو فقد كانوا يظنون انهُ ما بهِ يعرف الليل من النهار والنهار من الليل كما جاء في حديث هرقل ومعاوية . ولم يقل لنا صاحب الكشكول رأيهُ فيهِ وكلّ ما قال انهُ يُرى على وجه الارض من القمر مثل المحو الذي نراهُ نحن على القمر . وليس ذلك ببعيد فان المحو الذي نراهُ في القمر هو صورة ما فيهِ من الجبال والسهول . ولما كانت الارض كثيرة الجبال والبحار والسهول فلا بدع ان يرى سكان القمر عليها ما يراهُ سكان الارض عليهِ

الرشيد والبهلول

« لما وصل الرشيد الكوفة قاصداً الحج خرج اهل الكوفة للنظر اليهِ وهو في هودج عالٍ فنادى البهلول يا هرون يا هرون فقال من المجنون علينا . فقيل هو البهلول . فرفع السجف فقال البهلول يا امير المؤمنين روينا بالاسناد عن قدامة بن عبدالله العامري قال رأيت رسول الله صلى الله عليهِ وسلم يرمي جمرة العقبة لا ضربٌ ولا طردٌ ولا قال اليك اليك . وتواضعك يا امير المؤمنين في سفرك هذا خيرٌ من تكبرك . فبكى الرشيد حتى جرت دموعهُ على الارض وقال احسنت يا بهلول زدنا . فقال ايها رجل آتاهُ الله مالاً وجمالاً وسلطاناً فانفق مالهُ وعفَّ جمالهُ وعدل في سلطانهِ كتب في ديوان الله من الابرار . فقال لهُ الرشيد احسنت وامر لهُ بجائزة فقال لا حاجة لي فيها ردَّها الى من اخذتها منهُ . قال فيجري عليك رزقاً يقوم بك . قال فرفع البهلول طرفهُ الى السماء وقال يا امير المؤمنين انا وانت عيال الله فمحال ان يذكرك وينساني »

والبهاليل فرقة من المتصوفة والبهلول المذكور هنا هو ابو وهيب بن عمرو الصيرفي الكوفي المعروف ببهلول المجنون . قال الصلاح الكتبي في فوات الوفيات « وكان من عقلاء المجانين ولهُ كلام مليح ونوادر واشعار . استقدمهُ الرشيد وغيرهُ من الخلفاء ليسمعوا كلامهُ » . وذكر الشعراني ان الرشيد اجتمع بهِ يوماً فقال لهُ كنت اشتهي ان اراك فقال لكني انا لم اشتق اليك . فقال لهُ عظني . قال بمَ اعظك هذه قصورهم وهذه قبورهم . ثم قال كيف بك يا امير المؤمنين اذا اقامك الحق تعالى بين يديهِ فسألك عن الفقير والفتيل والقطمير (هما القشرة الرقيقة بين النواة والتمرة) وانت عطشان جوعان عريان واهل الموقف ينظرون اليك ويضحكون عليك . فخنقتهُ العبرة . وكان بهلول مجاب الدعوة فامر لهُ الرشيد

بصلة فردها عليهِ وقال ردّها الى من اخذتها منهُ قبل ان يطالبك بها اصحابها في الآخرة فلا تجد لم شيئاً ترضيهم بهِ . فبكى الرشيد »

زهد الخلفاء الراشدين

ولست نقرأ في كتب الادب اجمل مما قيل عن زهد الخلفاء الراشدين . روي عن ابي بكر الصديق انهُ لما حضرتهُ الوفاة قال لعائشة « انّا منذ ولينا امر المسلمين لم نأكل لهم ديناراً ولا درهماً ولكنا قد اكلنا من جريش طعامهم ولبسنا من خشن ثيابهم وليس عندنا من فيء المسلمين الاّ هذا العبد وهذا البعير وهذه القطيفة [1] فاذا متُّ فابعثي بالجميع الى عمر . فلما مات بعثتهُ الى عمر فلما رآهُ بكى حتى سالت دموعهُ الى الارض وجعل يقول رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعدهُ ويكرر ذلك وأمر برفعهِ . فقال عبد الرحمن بن عوف سبحان الله تسلب عيال أبي بكر عبداً وناضحاً وتسحق قطيفة [2] ثمنها خمسة دراهم فوأمرت بردها عليهم فقال لا والذي بعث محمداً صلّى الله عليهِ وسلّم لا يكون هذا في ولايتي ولا يخرج أبو بكر منهُ وأنقلهُ أنا »

وقيل إن زوجة اشتهت حلواً فقال ليس لنا ما نشتري بهِ فقالت انا استفضل [3] من نفقتنا في عدة ايام ما نشتري بهِ قال افعلي ففعلت ذلك فاجتمع لها في ايام كثيرة شيء يسير . فلما عرّفتهُ ذلك ليشتري بهِ حلواً اخذهُ فردهُ الى بيت المال وقال هذا يفضل عن قوتنا وأسقط من نفقتهِ بمقدار ما نقصتْ كل يوم وغرّمهُ لبيت المال من مالهِ كان لهُ . وكان يحلب للحي اغنامهم فلما بويع بالخلافة قالت جارية منهم الآن لا يحلب لنا منائح [4] دارنا . فسمعها فقال بلى لعمري لأحلبنها لكم واني لأرجو ان لا يغيّر بي ما دخلت فيهِ فكان يحلب لهم ثم تحول الى المدينة بعد ستة اشهر من خلافتهِ

وحدث أسلمُ عن عمر بن الخطاب قال : خرج عمر الى حرّة واقم [5] وانا معهُ حتى اذا كنا بصرار [6] اذ نار تسعر فقال انطلق بنا اليهم فاذا بامرأة معها صبيان لها وقدر منصوبة على نار وصبيانها يتضاغون [7] . فقال عمر السلام عليكم يا اصحاب الضوء وكره ان يقول يا اصحاب النار . قالت وعليك السلام . قال أدنو . قالت ادنُ بخير اودّع . فدنا

---

(١) القطيفة دثار ذو وبر كالمخمل (٢) الناضح البعير والسحق الثوب البالي وسحق قطيفة اي قطعة قطيفة بالية والاضافة بيانية (٣) افتصد او أترك فضلة (٤) المنائح جمع منيحة وهي الناقة او الشاة المحلوب لبنها غيرك يحتلبها ثم يردّها عليك (٥) مكان في ظاهر المدينة (٦) مكان مرتفع (٧) يتضورون جوعاً ويصيحون

فقال ما بالكم . قالت تعبت الليل والبرد . قال فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون . قالت من الجوع . قال وايّ شيء في هذه القدر . قالت مالي ما أسكتهم حتى يناموا فانا أعلّلهم واوهمهم اني اصلح لهم شيئاً حتى يناموا الله بيننا وبين عمر . قال اي رحمك الله ما يدري بكم عمر . قالت يتولى امرنا ويغفل عنا . فاقبل عليّ وقال انطلق بنا نخرجنّ نهرول حتى اتينا دار الدقيق فاخرج عدلاً فيه كُبّة (١) شحم فقال احملهُ على ظهري . قال أسلمُ فقلت انا احملهُ عنك مرتين او ثلاثاً . فقال آخر ذلك انت تحمل عني وزري يوم القيامة لا أمّ لك ؟ . فحملتهُ عليه فانطلق وانطلقت معهُ نهرول حتى اتينا اليها فالقى ذلك عندها واخرج من الدقيق شيئاً فجعل يقول لها ذري عليّ وانا احسن (٢) لك . وجعل ينفخ تحت القدر وكان ذا لحية عظيمة فجعلت انظر الى الدخان من خلل لحيته حتى انضج ثم انزل القدر فاتتهُ بصحفها فافرغها ثم قال أطعمهم وانا اسطح (٣) لك فلم يزل حتى شبعوا ثم خلى عندها فضل ذلك . وقام وقمت معهُ فجعلت تقول جزاك الله خيراً انت أولى بهذا الامر من امير المؤمنين . فيقول قولي خيراً فانك اذا جئت امير المؤمنين وجدتيني (٤) هناك ان شاء الله . ثم تنحى ناحية ثم استقبلها وربض لا يكلمني حتى رأى الصبية يضحكون ويتطرحون ثم ناموا وهدؤا فقام وهو يحمد الله . فقال يا اسلمُ الجوع اسهرهم وابكاهم فاحببت ان لا انصرف حتى أرى ما رأيت منهم »

وقال ابو هريرة : يرحم الله ابن حنتمة (٥) لقد رأيتهُ عام الرمادة (٦) وانهُ ليجعل على ظهره جرابين وعكة زيت في يده وانهُ ليعتقب (٧) هو وأسلمُ فلما رآني قال من اين يا أبا هريرة . قلت قريباً . فاخذت اعتقبهُ فجعلتُ حتى انتهينا الى ضرار فاذا نحو من عشرين بيتاً من محارب . فقال لهم ما اقدمكم . قالوا الجهد واخرجوا لنا جلد الميتة مشويًا كانوا يأكلونهُ ورمة العظام مسحوقة كانوا يستفونها . فرأيت عمر طرح ردائهُ ثم ائتزر فما زال يطبخ حتى اشبعهم . ثم ارسل أسلمَ الى المدينة فجاء بابعرة فحملهم عليها حتى ازلم الجبانة ثم كساهم وكان يختلف اليهم والى غيرهم حتى رفع الله ذلك »

فالفرق كبير بين هذا الزهد في حطام الدنيا من الخلفاء الراشدين وبين مجالي الابهة والتفخفخة التي كان الخلفاء بعدهم يتجلّون فيها ويغالون بها كلما امعنوا في الايام

(١) كتلة (٢) لمن الصحيح "حسن" لك اي اجعل القدر على النار (٣) أبسط الطعام حتى يبرد (٤) بدل وجدتني وهذا كثير في كلامهم (٥) اسم ام عمر (٦) عام جدب في ايام عمر اهلك الناس والاموال (٧) يتناوبان الحمل

مجون القضاة

« كتب بعض الادباء الى القاضي ابن قُرَيْعَة سؤالاً فتوى ما يقول القاضي ايدهُ الله تعالى في رجل سمّى ابنهُ مداماً وكناهُ ابا الندامى . وسمّى ابنتهُ ازاج وكناها ابنة الافراح . وسمّى عبدهُ الشراب وكناهُ أبا الاطراب وسمّى وليدتهُ القهوة وكناها ام البشوة — أيُنهى عن بطالتهِ ام يترك على خلاعتهِ

« فكتب في الجواب لو نعت هذا لابي حنيفة لاقعدهُ خليفة ولعقد لهُ رايَهُ وقاتل تحتها من خالف رايَهُ . ولو علما مكانهُ لسجدا اركانهُ . فان اتبع هذه الاسماء افعالاً وهذه الكنى استعمالا علمنا انهُ قد أحيا دولة المجون وأقام لواءه ابنة الزرجون فبايعناهُ وشايعناهُ وان لم يكن الاَّ اسماء سماها ما لهُ بها من سلطان خامسا طاعتهُ وفرقنا جماعتهُ . فنحن الى امام فعال احوج منّا الى امام قوال »

والسؤال والجواب كلاهما مجون في مجون ولكن قارئاً يجهل ابن قريعة وابا حنيفة قد لا يدرك هذا المجون . اما ابن قريعة فكان قاضياً في بعض اعمال بغداد وكان عجيباً في سرعة البديهة في الجواب عن جميع ما يسأل عنهُ بافصح لفظ واملح سجع . وكان رؤساء ذلك العصر (القرن العاشر للمسيح والرابع للهجرة) يداعبونهُ ويكتبون اليهِ المسائل الغريبة المضحكة (كما ترى في السؤال المتقدم) فيكتب الجواب من غير توقف مطابقاً للسؤال . وكان الوزير ابو محمد المهلبي يغري بهِ جماعة يضعون لهُ الاسئلة الهزلية على معانٍ شتّى من النوادر الهزلية ليجيب عنها بمثلها . ولما قدم الصاحب ابن عباد بغداد حضر مجلس الوزير المهلبي وكان فيهِ ابن قريعة فرأى من ظرفهِ وسرعة خاطرهِ ما ادهشهُ

واما ابو حنيفة صاحب المذهب المشهور فعاش في القرن الثاني للهجرة . وكان عالماً ورعاً زاهداً ابعد اهل زمانهِ عن المجون . وعارف هذه الحقائق يدرك وجه المجون في قول ابن قريعة عنهُ ما قال . وكان كثير الظن في العربية لهُ لكنة ورطانة تنمان على اصلهِ الفارسي . وكان معاصراً لخليفة ابي جعفر المنصور وارادهُ الخليفة على ولاية القضاء في بغداد فابى فاصر الخليفة وطال الحجاج بينهما فقال ابو حنيفة للمنصور « اتق الله ولا ترعَ في اماناتك الاَّ من يخاف الله . والله ما انا مأمون الرضا فكيف اكون مأمون الغضب . ولو تهددتني ان تغرقني في الفرات او تلي الحكم لاخترت ان اغرق » فلم يرضَ بجوابهِ وزجهُ في السجن ثم خلّى سبيلهُ

(نقيب)